﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لا نهايةَ لمطاعن الكافرين؛ فَبَعْدَ الطَّعن في الرِّسالة طعَنوا في الرَّسول

لمّا بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ حالَ الكافرين مع القرآن، وطعنَهم فيه: أتبَعَهُ ببيان حالِهم وكُفرِهم وطَعنِهم فيمَن نزلَ عليه القرآنُ[1]؛ ثمَّ لمّا ذَكَرَ استبعادَ الكافرين نزولَ القرآن على النَّبيِّ ﷺ، لكونه ليس عظيمًا في المال والمكانة لديهم: أتبَعَهُ بالإنكار عليهم بأنَّ "اللّه يخصُّ بالنُّبوَّةِ مَن يشاءُ مِن عباده، على ما تقتضيه حكمتُه وإرادتُه، وليس ذلك بتدبير المخلوقين، ولا بإرادتهم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾: (قري) أصْلٌ يدلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمِّيَت قَريَةً لِاجتماعِ النّاسِ فيها[3]، والقَرْيُ: جَمْعُ الماءِ في الحَوض، والقَرِيُّ: مُسْتَجْمَعُ ماءٍ كثيرٍ في شِبْهِ وادٍ صَغيرٍ، والجميع القُرْيانُ[4]، والقَرْيَةُ: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[5]، والمراد بالقريتين في الآية الكريمة مكَّةُ والطّائفُ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (قرى).
(5) الراغب، المفردات: (قرى).
(6) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.

2) ﴿يَقْسِمُونَ﴾ (قسم) أصلٌ يدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[1]، والقَسْمُ: إفرازُ النَّصيب، يقال: قَسَمْتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً؛ وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقُهما على أربابهما[2]، والقَسيمُ: الذي يقاسمُكَ أرضًا أو مالًا بينك وبينه[3]، والقِسْمُ: الحظُّ والنَّصيب، يقال: هذا قِسْمُكَ وهذا قِسمي[4]، فقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: (أهُم يفرِّقونها فيُعطونَ الرِّسالة مَن شاؤوا ويمنعونها مَن شاؤوا؟).

3) ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾: (عيش) أصلٌ يدلُّ على حَياةٍ وبقاءٍ[5]، والمعيشة: التي يعيش بها الإنسانُ مِنَ المطعم والمشرب، وكلُّ شيءٍ يعاشُ به أو فيه فهو مَعاشٌ، والنَّهار مَعاشٌ، والأرضُ مَعاشٌ للخَلْق، يلتمسون فيها مَعايشَهم[6]، يقال: عَيشُ آلِ فلانٍ اللَّبَنُ؛ إذا كانوا يعيشون به، وعَيشُ آلِ فلانٍ الخبزُ، وعَيشُهم التَّمرُ، ورُبَّما سَمَّوا الخُبْزَ عَيْشًا[7]، والمرادُ بالمعيشة في الآية الكريمة الرِّزقُ[8]، وما يُعاش به مِن زرعٍ وضرعٍ وغيرهما[9].

4) ﴿سُخْرِيًّا﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على اسْتِذْلالٍ؛ يُقال: سَخَّرَ اللهُ ﷻ الشَّيْءَ؛ إذا ذَلَّله لأمْرِهِ وإرادته؛ قال اللهُ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، ويُقال: رجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ في العملِ[10]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة، وكذلك تَسَخَّرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذْليلُ[11]، والسُّخْرةُ ما تَسَخَّرْتَ من خادمٍ ودابَّةٍ بلا أجْرٍ ولا ثمنٍ، وسَخَرَتِ السُّفُنُ: أطاعت وطاب لها السَّيرُ، وتَسَخَّرتُ دابَّةً لفلان: ركِبتُها بغير أجرٍ[12]، والمراد به في الآية الكريمة التَّسخيرُ في الخدمة[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(2) الراغب، المفردات: (قسم).
(3) الخليل، العين: (قسم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قسم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(6) الخليل، العين: (عيش).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عيش).
(8) الواحدي، البسيط: 20/ 34.
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (عيش).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(11) الجوهري، الصحاح: (سخر).
(12) الخليل، العين: (سخر).
(13) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قِسمَةُ النُّبوَّة والأرزاق مِن شأن الله تعالى وحدَه

وقال هؤلاء المشركونَ مُتمادِينَ في جهلهم باللّه، عندما جاءَهم القرآن الكريم: (هذا سحرٌ، فإن كان هذا القرآنُ حقًّا مِن عند اللّه تعالى فهلّا نَزَلَ على رجلٍ عظيمٍ ذي سَعَةٍ ومالٍ وجاهٍ وما يُعاش به مِن زرعٍ وضرعٍ وغيرهما[1] مِن إحدى هاتين القريتين الكبيرتين مكّة أو الطّائف؟)، فردَّ اللّه تعالى على جهلهم مُنكِرًا عليهم ذلك: (هل هُم - لا غيرهم - مَن يقسِمُ النُّبوَّة فيضَعونها حيث شاؤوا؟ نحن قَسَمْنا بينهم معيشَتَهم وأرزاقَهم في حياتِهم الدُّنيا، ورَفَعنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ؛ فمنهُم غنيٌّ وفقيرٌ، وقويٌّ وضعيفٌ؛ وذلك ليكونَ بعضُهم مُسَخَّرًا لبعضٍ في ما يحتاجون إليه مِن أمر المعاش، وإنَّ رحمة ربِّكَ - أيُّها الرَّسول - بالنُّبوَّة وبالسَّعادة في الدّارين بنعمةِ الإيمانِ والتَّوحيد: خيرٌ ممّا يجمعون مِن حُطام الدُّنيا الفاني)[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصلِ في مُفتتح الآية:

مَطاعِنُ الكفّار في الوحي والموحَى إليه مستمرَّة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ على الجملة في جواب (لمّا) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]. فلمّا طعنوا في القرآن بكونه سحرًا أخبر عن طَعنِهم في مَن نزل عليه القرآن[4]، إمعانًا في إظهارِ كُفرهِم وتأكيده، فالعطفُ أفادَ أنَّ هذا المعطوفَ قولٌ لهُم ترتَّبَ على مجيء الحقِّ ورسولٍ مبينٍ؛ فلَمّا أدرَكوا عظَمة هذا الرَّسول بالقرآن الحقِّ قالوا هذا القولَ العجيبَ، وإنَّما قدَّموا طعنَهم في القرآن؛ لأنه يَلزَم منه

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عيش).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 592 - 595، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 491.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

الطَّعنُ في الذي جاءَهم به؛ لأنَّه بُرهانُ نُبوَّتِه، ولا يَلزَمُ مِن الطَّعن في الرَّسول الطَّعنُ في القرآن.

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ ودلالةُ التَّعبير بها:

من ضلالات الكافرين اقتراحُهم الصِّفاتِ الواجبةَ في المُرسَل

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ﴿لَوۡلَا﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾؛ وهي هنا للتَّحضيض[1]، والمرادُ مِنَ التَّحضيض إبطالُ ثبوت الرِّسالة للنَّبيِّ ﷺ، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملازمة؛ وذلك لأنَّ التَّحضيض على تحصيل ما هو مقطوعٌ بانتفاء حصولِه يستلزمُ الجَزمَ بانتفائه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّنزيل:

في كلامِ الكفّارِ ما يُبيِّن عوارَهم وكذبَهم وتناقُضَهم

في جعلِ الكُفّارِ القرآنَ مُنزَّلًا إقرارٌ بأنَّه ليس مِن عندِ بَشَرٍ؛ وإنَّما هو مِن عند الله ﷻ؛ وهذا المعنى إمّا أنَّه تسرَّبَ مِن نفوسهم، مِن غير أنْ يَشْعُروا به؛ فيكون مُظهِرًا لتناقضِهم العجيب؛ لأنَّ الذي أنزلَ هذا القرآنَ العظيمَ مِن شأنه أنْ يَصطفيَ مَن يشاءُ مِنَ النّاس؛ ليُرسِله إليكم بالقرآن، وإمّا أنه جرَى على ألسنتهم؛ مِن باب الفرض والتَّقدير.

دلالةُ البناء للمفعول:

في كون لفظِ التَّنْزيلِ فعلًا ماضيًا مَبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه ترجيحٌ للوجه الثّاني في دلالة التَّعبير بالتَّنزيل؛ فكأنَّهم قالوا: (لولا نَزَّل المُنزِّلُ الذي ذكرَهُ محمَّدٌ ﷺ)، اجتهادًا منهم في إخفاء مصدر هذا القرآن، وإمعانًا في كُفرهم.

دلالةُ صيغة (فَعَّلَ):

نزَلَ القرآنُ مُنجَّمًا مُفرَّقًا، فَكَثُر تكرارُ نزوله

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن نزول القرآن بصيغة التَّفعيل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؛ وذلك لأنَّ القرآنَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.

نزَل مُنجَّمًا مُفرَّقًا على حسب التَّدريج، فالتَّعبير بصيغة التَّكثير أنسبُ لذلكَ[1].

دلالةُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

احـتـقـارُهـم لـلـقـرآن واستهانتُهم به بكلِّ الوسائل المتاحة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾؛ حكايةً عَمّا قالوه، وأرادوا بذلك تهوينَ شأنِ القرآن، فذِكرُهُ بالإشارة استهانةٌ به[2]، ويرى القونويُّ أنَّ اسمَ الإشارة هنا دالٌّ على التَّفخيم، وذلك للإشعار بأنَّ هذا القرآن حقٌّ، ولكنَّه لا يليقُ بمحمَّدٍ ﷺ[3]، وقد يُقال: المرادُ ليس التَّهوينَ ولا التَّفخيمَ، بلِ التَّعيينُ، أي: هذا القرآن الذي يتلوهُ علينا لا غيره، فأشاروا إليه لحضوره وشُخوصه بينهم[4]، ولكنَّ هذا حاصلٌ معَ أحد الدَّلالتيْنِ المذكورَتيْنِ، وعلى وجه الإشعار بأنَّه حقٌّ يكونُ هذا منهُم على سبيل الفَرْض، وإذا كان منهم على سبيل الفَرْض كان فيه نوعُ احتقارٍ واستهانةٍ بالقرآنِ، وعلى وجهِ أنَّهم يُقرّون بأنَّ القرآن عظيمٌ فإنَّ في طلب أنْ يكون الرَّسولُ المُنزَّلُ عليه رجلًا مِنَ القريتيْنِ عظيمًا إهانةً للقرآن أيضًا؛ لأنَّ القرآنَ العظيمَ إنَّما يُرسله اللّٰه مع عظيمٍ؛ فلعلَّ الأولى أن تكونَ الإشارةُ لاحتقارهم القرآنَ، واستهانتِهم به.

عِلَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

ما استهانوا به فيه هو محلُّ كمالِهِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالقرآن بعد اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ للدَّلالة على مَحَلِّ استهزائِهم واحتقارِهم للقرآن، وهو أنَّه جامعٌ للخير والفضائل على حدِّ ادِّعاء مَن جاءَهم به ﷺ، ففيه إشارةٌ إلى تحقيرِ المشركين للقرآن[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 420.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 133، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 91.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 24/ 7.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 420.

سِرُّ التَّنكير في: ﴿رَجُلٍ﴾:

زعَمَ الكفّارُ جهلًا وكِبرًا أنَّ مستحقِّي النُّبوَّة كثرٌ!

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرَّجل نكرةً في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾؛ دلالةً على التَّعظيم، أي: لو نُزِّل على رجلٍ عظيم مِن عُظماء القريتين[1]، كما يدلُّ على التَّكثير، أي: كثُر الرِّجالُ العُظماءُ الذين يستحقّون أن يختارهم الله للرِّسالة؛ فهلّا اختار أحدًا منهم غيرَ هذا الرَّسول؟!.

توجيهُ إفرادِ الرَّجل وتثنيةِ القريتَين:

هلّا نَزَل القرآنُ على رجلٍ يجتمع النّاسُ على عظَمَته؟!

جَعَلَ الكفّارُ المُنزَّلَ عليه رجلًا واحدًا، مَعَ تثنية القريتين في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾؛ فكيف يكون رجلًا واحدًا من قريتين؟ والجوابُ عن ذلك أنَّه أراد: (مِن إحدى القريتين)، كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرحمن: 22]، اغتناءً بوَحدة: ﴿رَجُلٖ﴾[2]، فالمراد: رجلٌ واحد مِن أحَد رجُلَي القريتين العظيمَين.

نكتةُ تعريف ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾:

اختيارُهم لأكبَرِ قرى تهامة

عرَّف النَّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ وهي هنا للعهد الذِّهنيِّ؛ إذِ المرادُ بالقريتين مكَّةُ والطّائف[3]، وذلك لأنَّهما أكبرُ القرى في تهامة التي هي بلدُ القائلين[4].

دلالةُ وصف الرَّجل بصفةِ العظَمة:

المالُ والزُّخرفُ معيارُ التَّعظيم عند أهل الضَّلال

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ الرَّجلَ بصفة العظَمة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾؛ وذلك تعبيرًا عَن ظَنِّهم أنَّ الرِّسالة يجبُ أن تكون وفق العظمةِ التي عَهِدوها؛ وهو أن يكون غنيًّا بما أوتيَ مِن زخرف الدُّنيا ومتاعها،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257 - 258، والبقاعي، نظم الدرر: 24/ 7.
(3) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 439.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.

وغفلوا عنِ الرُّتب الرّوحانيَّة وما فيها من فضائلَ تستدعي عِظَمَ النَّفس وكمالَها[1]، وهذا يعني أحدَ أمرَيْنِ؛ إمّا أنَّهم أحسّوا بعظمة القرآن التي سيتَّصف بها الرَّسول الذي جاءَهم به، فسارَعوا إلى نفي عظمته، بُغضًا وحسدًا؛ وإمّا أنَّهم لم يشعروا بعظمته، فنَفَوا أن يكون الرَّسول الذي جاءَهم به عظيمًا، والوجه الأول هو الأعلى في ضوء أقوالهم وأحوالهم تُجاه القرآن في الذِّكر الحكيم.

عِلّة فَصْلِ الجملة:

مقالتُهم في الرَّسول تُحرّك النَّفس لمعرفةِ الجواب عليها

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عَن سؤالٍ تقديرُه: وماذا قال الله تعالى ردًّا عليهم؟ وقد سيقت للإنكار على ما قالوه، وتوبيخًا لهم ممّا اقترحوه[2]، والغرضُ مِن ذلك بيانُ أنَّ غرَضَهُم ودافعَهم إنَّما هو الحسد، لا الاستهانةُ بالقرآن[3]، فعدَلوا عنِ النَّظر إلى مضمون الرِّسالة إلى النَّظر في ذاتِ مَن أُرسِلَ إليه وحالِه مِنَ الغنى؛ بالنّظر إلى حال غيره ممَّن يعظِّمونهم.

بلاغةُ الاستفهام:

ما أجهلَ مَن يرى نفسه جديرًا بأن يقرِّر مَن يكونُ نبيًّا ورسولًا!!

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ وهو للإنكار والتَّجهيل والتَّعجّب والتَّعجيب؛ حيث يُريدون التَّحكُّم في شأنِ النُّبوَّة والرِّسالة[4]، أي: عجبًا لهم، وما أجهلَهم بقدر أنفُسِهم، أيبلُغ مِن أمرهم أنْ يُقرِّروا ويصطَفوا مَن يشاؤون للنُّبوَّة؟![5].

دلالةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

إنكارُ تطلُّعهم أن يكونوا أهلًا لتقرير مَن يكون نبيًّا

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المسندَ إليه على الفعل في قوله جلَّ شأنُه:

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 132.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 630.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 85.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وذلك للإنكار على تخصيصِهم أنفُسَهم باختيار مَن يكون رسولًا؛ فإنَّ تقديمَ المسنَد إليه هنا دالٌّ على الاختصاص[1]، فلمّا نصَّبوا أنفسَهم منصبَ مَن يتخيَّر أصنافَ النّاس للرِّسالة عنِ اللّه: قد جعلوا لأنفسهم ذلك لا للّه، فكان مِن مقتضى قولهم أنَّ الاصطفاء للرِّسالة بيدِهم، فلذلك قُدِّم الضَّميرُ (هم) المجعولُ مسندًا إليه على المسنَد الفعليِّ، ليُفيدَ معنى الاختصاص؛ فسُلِّطَ الإنكارُ على هذا الحصر؛ إبطالًا لقولهم، وتخطِئةً لهُم في تحكُّمِهم[2].

سِرُّ التّعبير عَنِ القسمة بالفعل المضارع:

رحمةُ اللّه للخلائق لا تنقطع؛ فدوامُ الحياة بدَوامها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار[3]، فإنَّ شأن الرَّحمة وتقسيمها على العباد لا ينقطع، بل هو متجدِّدٌ دائمٌ، ثمَّ إنَّ قِسمتهُم هذه قدِ انتهت؛ ولكنَّ القرآن يستحضرُها بالمضارعة، لتعجيبِ المخاطَب منها؛ وهذا أبلغُ في إنكارها.

دلالةُ التَّعبير بالرَّحمة وإضافتِها إلى الرَّبّ:

النُّبوَّةُ فيضٌ مِن رحمة الله، وشأنٌ خاصٌّ مِن شؤونه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرَّحمة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ والمرادُ بها النُّبوَّة[4]، فإنَّ اختيار أحدٍ للنُّبوَّة أعلى مراتب الرَّحمة وأسماها، ولأنَّ الاصطفاء للرِّسالة رحمةٌ للنّاس المُرْسَل إليهم؛ فقد جعل القرآنُ تحكُّمَهُم في ذلك قسمةً منهُم لرحمة اللّه باختيارهم مَن يختارُ لها، وتعيينِ المُتأهِّلِ لإبلاغِها إلى المرحومينَ[5].

ودلَّت إضافتُها إلى الرَّبِّ على أنَّ النُّبوَّة محضُ إكرامٍ مِنَ الذي

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 439.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 200.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.

سبقَ منه الإحسانُ والإنعام، فهي من وجوه إحسانه تعالى إلى الخَلْقِ عامَّةً، وفيها تشريفٌ له ﷺ، وإظهارٌ لعليِّ قَدْرِه[1]، كما أنَّ فيها دلالةً على اختصاص شأن النُّبوَّة بالله تعالى؛ فلا مطمعَ لهم في التَّحكُّم بها، ولا سبيلَ إلى ذلك، فالنُّبوَّة رحمةٌ عظيمةٌ وشأنٌ خاصٌّ من شؤون الخالق تعالى.

دلالةُ إيثار لفظِ الرُّبوبيَّة وإضافتِه إلى ضمير المخاطَب:

الإحسانُ بالنُّبوَّة نعمةٌ جليلةٌ مِنَ الباري تعالى

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة بتخصيصِه ﷺ بالرِّسالة واصطفائِه أنْ يكون نبيًّا إنَّما هو مِن عظيم الإحسان، ووفيرِ الإنعام.

ودلَّت إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَب المرادِ به النَّبيُّ ﷺ على التَّشريف والتَّكريم[2]؛ وإنّما حسُن التَّشريفُ والتَّكريم هنا لأنَّه وردَ في سياقِ الاستهانة بالنَّبيِّ ﷺ؛ فقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: إنَّما هو استخفافٌ منهم واستهانةٌ به ﷺ، فردَّ اللهُ تعالى على ذلك القولِ بأنْ شرَّفه بإضافته إليه؛ فكان أبلغَ ردٍّ، وأعظمَ إنكارٍ؛ بأنْ أقبلَ عليه بالخطاب[3].

دلالةُ فَصْلِ الجملة:

العاجِزُ عن تدبير معيشتِه أنَّى له التَّحكُّمُ بشأن النُّبوَّة؟!

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ سِيقَتْ جوابًا لِمن سأل: فمَنِ القاسِمُ؟[4]، ويجوزُ أن يكون الاستئنافُ تعليليًّا، وسِيقَت الجملةُ لبيان علّةِ الإنكار، فلمّا أوردَ الإنكارَ عليهم في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: أتبعَهُ بوجهِ الإنكار، "أي: لمّا قسَمنا بين النّاس معيشتَهم؛ فكانوا مُسَيَّرين في أمورهم على نحو ما هَيَّأنا لهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421 - 422.

مِن نظام الحياة، وكان تدبيرُ ذلك للّه تعالى ببالغِ حِكمَته، فجعلَ منهم أقوياءَ وضعفاء، وأغنياءَ ومحاويجَ، فسخَّر بعضَهم لبعضٍ في أشغالهم على حساب دواعي حاجةِ الحياة، ورفعَ بذلك بعضَهم فوق بعضٍ، وجعلَ بعضَهم محتاجًا إلى بعض، ومُسخَّرًا به؛ فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدُّنيا: فكذلك الحالُ في إقامة بعضِهم دون بعضٍ للتَّبليغ؛ فإنَّ ذلك أعظمُ شؤون البشر، فهذا وجهُ الاستدلال"[1]، والقصدُ مِن هذا الاستئنافِ إظهارُ عَجْزِهم في تدبير المعيشة الدُّنيويَّة، فيكونون في تدبير شأن الدِّين أعجزَ[2].

نكتةُ استعمالِ الضَّميرِ المُنفصلِ ﴿نَحْنُ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالضَّمير المنفصلِ المسندِ إليه، مُقدَّمًا على المسند الفعليِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص في شأن تقسيم الأرزاق، أي: (نحن قسَمنا، لا غيْرُنا)؛ قصرًا إضافيًّا قلبيًّا؛ فهو مِن شؤونه تعالى وحده، فهو تعالى لم يُفوِّض أحدًا يقوم بذلك عنه، وليس للعباد أن يتحكَّموا في شيءٍ، بلِ الحكمُ للّه تعالى وحده، والمعنى: (إذا كان تقسيمُ الأرزاق بيد اللّه تعالى؛ وقد قضَى برَفعِ بعضِهم على بعضٍ في الرِّزق: فكيف لا يقنَعون بقسمته في أمر النُّبوَّة؟!)[3].

الرِّزقُ شأنٌ عظيمٌ مقصورٌ على اللّه العظيم

وفي التَّعبيرِ بضمير التَّعظيم بصيغة الجمع ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك يقعُ بما للّه تعالى مِن عظمةٍ تقتضي التَّفرُّدَ[4]، فمِن شأنِ هذه القسمة أنْ تُعرِّفَهُم باللّه؛ وأنْ تدلَّهم على اللّه؛ وأنْ يبحثوا في عظمة النَّبيِّ ﷺ، تلك العظمةِ التي اتَّصف بها بنزولِ القرآن عليه؛ بدلًا مِن أنْ يكفروا بكونهِ رسولًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 134.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

دلالةُ استعمال الفعل ﴿قَسَمْنَا﴾ بصيغة الماضي:

تقسيمُ الأرزاق أمرٌ إلهيٌّ محسوم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾، للدَّلالة على أنَّ تقسيم الأرزاق قد ثَبَت وسَبَق، وأنَّه حَدَثٌ مشهورٌ معروفٌ، فلذا وقع به الاستدلالُ؛ فهو ثابتٌ سابقٌ مقرَّرٌ لا يدافعونه؛ فدلالةُ الحسم والفصل والقطع فيه باديةٌ.

دلالةُ إسنادِ الفعل (قسم) إلى ضمير العظمة في: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾:

شأنُ الرِّزق عظيمٌ، ومِثلُه النُّبوَّة

أسنَدَ النَّظمُ الجليلُ فِعلَ التَّقسيم إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تقسيم المعيشة وقَع بما لله تعالى مِن عَظمةٍ[1]، فَقِسمةُ الأرزاق عظيمةٌ لا يقوم بها إلّا الخالِقُ المتَّصفُ بالعظمة؛ إشارةً إلى أنَّ النُّبوَّة كذلك.

نكتةُ تقييدِ التَّقسيم بشِبْه الجملة:

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ التَّقسيمَ بِشِبه الجملةِ مِنَ الظَّرف وضميرِ الغائب في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾؛ للدَّلالة على شمول التَّقسيم كُلَّ أحدٍ منهم، فالمعيشةُ أمرٌ يوجِبُ تخصيصَ كلِّ واحدٍ منهُم بما لديه[2].

سِرُّ تخصيصِ المعيشة بالذِّكْر:

إن كان تقسيمُ المعيشة خاصَّةً لله فتقسيمُ غيرِها أولى

خصَّ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ المعيشة دون غيره مِنَ الموجودات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ إشارةً إلى القضيَّة "التي يعدّونها رحمةً، ويقصرون عليها النِّعمةَ"[3]، فإنَّهم لمّا صرَّحوا بمعيارهم لصفة التَّعظيم، وأنَّها مقتصِرَةٌ على الحظِّ مِمّا في الدُّنيا - وهو ما يتعلَّق بأمر المعيشة -: صرَّح النَّظمُ الجليل بذلك؛ لينقُضَ ما تعلَّلوا به، وما بَنَوا عليه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

التَّحضيض؛ إذ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ فالمعيشةُ التي علا شأنُها لديهم نحن قسمناها بينهم؛ فلا حَقَّ لهم باتِّخاذها مُتَّكَأً للتَّفاضُل؛ فتقسيمُ المعيشة بينهم أُمٌّ لتقسيم كلِّ الأشياء بينهم؛ فقصرُ قِسمَتِها على الله إبطالٌ لكلِّ ما قالوه بشأن القرآن والرَّسول ﷺ.

نكتةُ تقييدِ القسمة بشِبْه الجملة:

التَّفاوتُ بينهم في أمـر الـدِّيـن أجَلُّ منه بينهُم في أمر الدُّنيا

قيَّد النَّظمُ الكريمُ القسمةَ بأنَّها في الحياة الدُّنيا في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ للدَّلالة على حال المعيشة المُقَسَّمة، أي: حال كونِ تلك المعيشة في الدُّنيا[1]، وفائدةُ الحالِ تقريرُ التَّفاوت في شأن الرِّزق، وما يلزم العيش؛ للتَّدليل على أنَّهم كما تفاوتوا في شأن الرِّزق في الحياة التي هي أدنى مِنَ الحياة الآخرة: فَهُم كذلك يتفاوتون في شأن الدِّين والاصطفاء للنُّبوَّة مِن باب أوْلى، وجاء وصفُ الحياة بالدُّنيا إشارةً إلى نُقصانها، وأنَّها بحيث لا يرضاها عاقِلٌ[2]، فكيف لهم أن يجعلوها معيارًا للتَّعظيم وأساسًا للاصطفاء لشأنٍ جليل؛ هو النُّبوَّةُ والرِّسالةُ!!

دلالةُ الواو في صدر الجملة:

كـمـا جـعَـلـهُـم الله متفاوتينَ في المعيشة جعَلَهُم مـخـتـلـفـينَ في الرُّتب

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ رَفعَ الدَّرجات على تقسيم المعيشة بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ فكان المتعاطفانِ مشترِكَين في الخبريَّة؛ للدَّلالة على أنَّه جَعَلَهم متفاوتِين في شأن المعيشة، وأنَّه كذلك قد جعلهم مختلفي الرُّتب في الرِّزق، وسائرِ ما يلزم المعاشَ[3]، ولو قال الله (رفعنا بعضَهُم) مِن غير واو: لكان تفصيلًا وبيانًا لقسمة المعيشة بينهم؛ فلَمّا تصدَّرت

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 595.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 241.

هذه الجملة بالواو دلَّ ذلك على احتفال القرآن بها؛ بجعلها معنًى مستقلًّا؛ بما في الواو من معنى المغايرة الذي لا يبرحُها؛ لأنَّ معنى هذه الجملة هو محلُّ التَّعليق على أقوال أهل الكفر.

دلالةُ التَّعبير بالرَّفع وإسنادِه إلى نون التَّعظيم:

منازلُ النّاس في الأرزاق كثيرةٌ متفاوِتَةٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالرَّفع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ لدلالته على رفع المنزلة وتشريفِها[1]، فرَفَعَ بعضَ النّاس بأن جَعَلَهُم أهلَ غنًى ومالٍ دون غيرهم؛ فبذلك يصلُحُ معاشُهم[2]، وهذا الرَّفْعُ هو المناسبُ لسياق نزول القرآنِ الكريم من عند الله على أشرفِ الخَلق ﷺ، وسياقُ إرادة أهلِ الكفرِ خفضُ شأنه ﷺ، والتَّهوينُ من شأنِ القرآن العظيم، وأسند القرآنُ فِعلَ الرَّفع إلى نونِ التَّعظيم للدَّلالة على أنَّه فعلَ ذلك بما لهُ تعالى منَ العظمة، وبما له من نفوذ الأمر الذي لا يُنقض[3].

دلالةُ التَّعبير بـ(بعض):

تخصيصُ الرَّفع بطائفةٍ مِنَ النّاس لمصلحة الكُلِّ

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ: (بعض) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾؛ لدلالته على الجزء والطّائفة، فبعضٌ مِنَ الشيء يعني: طائفةٌ وجزءٌ منه[4]، فدلَّ على أنَّه جعل النّاس مختلفينَ في التَّفاضل، فجعلَ تعالى بعضَ النّاس أفضلَ من بعضٍ بالرِّزق، والرِّياسة، والقوَّة[5]، وهذا المرفوعُ إنَّما رفعَه الله لحكمةٍ يَعلَمُها هو؛ وليس بلازم أنْ يعلمَها النّاسُ؛ فإنَّ البَعضيَّة لا تُنبئ عن وصفٍ يكون علَّةً للرَّفع، وهذه البعضيَّةُ تُشيرُ إلى أنَّ هذا الرَّفْعَ يعودُ على النّاس جميعًا بالخير؛ لأنَّ هذا المرفوع جزءٌ من كلٍّ، همُ النّاس؛ فما يُصيبُه من رفعٍ يُصيبُ النّاسَ أيضًا.

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 388.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(4) الفيومي، المصباح: (بعض).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿فَوْقَ﴾:

رُتَبُ النّاس متفاوتةٌ، بعضُها فوق بعض

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالظَّرف ﴿فَوْقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ لدلالته على العُلوِّ، وهو نقيضُ تَحْتٍ[1]، فدلَّ ذلك على أنَّهم درجاتٌ متفاوتة، والمرادُ: بيانُ المفاضلة في الدُّنيا في شأن الرِّزق والمنزلةِ والمكانة؛ فقد فاضلَ بينهم بالرِّزق، والرِّياسة، والقوَّة، والحرِّيَّة، والعقل، والعلم[2].

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ مادَّةً، وصيغةً:

منازلُ النّاس صعودًا متفاوتةٌ وكثيرةٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الدَّرجات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ لدلالة الدَّرجة على الصُّعود، وهي تُقال للمنزلة[3]، فلمّا كان السِّياقُ في الحديث عنِ المفاضلة بالرِّزق والمعيشة، وذلك برفع بعضِ النّاس فوق بعض: كانتِ الدَّرجات تُناسب الفوقيَّةَ والارتفاع؛ لأنَّها تُقال للصُّعود؛ وفي ذلك اللَّفْظ إشعارٌ بعلَّةٍ لطيفةٍ للرَّفْع؛ وهي الاجتهادُ في شيءٍ ما يتفاوتُ النّاس في تحصيله، وعبَّرَ عنها بالجمع للدَّلالة على كثرتها، فهي درجاتٌ ومنازلُ كثيرة؛ "متفاوتة بحسبِ القُربِ والبُعدِ حسبَما تقتضيه الحكمةُ؛ فمنْ ضعيفٍ وقويٍّ، وفقيرٍ وغنيٍّ، وخادمٍ ومخدومٍ، وحاكمٍ ومحكومٍ"[4]، والقِلَّةُ في هذا الجَمْعِ تشيرُ إلى وضوح هذه الدَّرجات والمراتب غايةَ الوضوح.

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

رفعُ بعضِهم على بعضٍ فيه مصلحةُ النّاس جميعًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، للتَّعليل وبيانِ الغاية، فَعِلَّةُ رفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فوق).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(3) الراغب، المفردات: (درج).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.

الدَّرجات لبعض النّاس دون بعضهم أنْ يَستخدم بعضُهم بعضًا[1]، وفائدةُ بيانِ علَّة الرَّفع والتَّفاوت في أمر الرِّزق التَّنبيهُ على أنَّ ذلك الرَّفعَ والتَّفضيل لم يكُن لكمال الموسَّع عليه، ولا لنقصٍ في المقتَّر عليه، بل لتكون الحياةُ صالحةً بهذا التَّفاوت[2]، والتَّصريحُ بالتَّعليلِ والغايةِ يُصوِّرُ كمالَ ظُهور المُعلَّلِ به في الواقع.

علَّةُ التَّعبير بالاتِّخاذ مادَّةً، وصيغةً:

النّاس مضطرّون لاستعمال بعضٍ في شؤونهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل الأخذ بصيغة الافتعال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لدلالة الأخذ على حَوزِ الشَّيء وتحصيله، والاتِّخاذُ افتعالٌ منه[3]، للدَّلالة على التَّكلُّف والاتِّخاذ بغاية الجُهد[4]، فالأخْذُ يدلُّ على غاية افتقار المُتَّخِذ للمُتَّخَذِ، وصيغةُ الافتعالِ إبلاغٌ في تقرير ذلك؛ فعِلُ الاتِّخاذ مادَّةً وصيغةً يدلُّ على أنَّ التَّفاوت في شؤونهم ومنازلهم اضطرَّهُم للاتِّخاذ والعملِ والسّخريَّة.

علَّةُ تكرار لفظ (بعض):

كلُّ النّاس مشمولون بالاستعمال فيما بينهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ البعضيَّة مكرَّرًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ للدَّلالة على العموم، فهو عامٌّ في النّاس، إذ ما منهم مِن أحدٍ إلّا وهو مستعملٌ لغيره، وغيرُهُ مستعملٌ لغيرٍ آخر[5]، فلم يُعيَّن الفاضلُ والمفضول؛ لأنَّ السِّياق في بيان سبب تبايُنِ النّاس في الأرزاق؛ لينفيَ القرآنُ عن المُنزَّلِ عليه القرآنُ الأفضليَّةَ التي زعَموها في اقتراحهم بأنْ يكونَ النَّبيُّ رجلًا عظيمًا على وفق موازينهم.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 388.
(3) الراغب، المفردات: (أخذ).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسُّخرة:

تتنوَّع الأعمالُ تبعًا لتنوُّع الحاجات، وذلك مِن أعلى مصالح النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالسُّخريَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ للدَّلالة على استعمال بعضِهم بعضًا في حوائجهِم؛ وذلك لدلالته على التَّذليل والتَّكليف بالعمل[1]، وذلك بأن يستعمل أحدُهم غيرَه فيما يتعسَّر أو يتعذَّر عليه عملُه ومباشرتُه، ويأخذ للثّاني مِنَ المال ما هو مفتقِرٌ إليه مِنَ الأوَّل، فهذا بماله، وهذا بأعماله[2]، فترى النّاسَ يستعينُ بعضُهم ببعضٍ، فيقعُ بينهم التَّعارفُ والاجتماع؛ لأجْلِ حاجةِ بعضِهم إلى بعضٍ، وبهذا تتكوَّن المُدُنُ والمجتمعات[3]، ولَمّا كان المرادُ في السِّياق الاستخدامَ دون الهُزْء - أي: (يستخدمُ بعضُ النّاس بعضًا) - لأنَّه لا يليقُ التَّعليلُ بالهُزء: أجمعَ القرّاءُ على ضَمِّ حرفِ السِّين في قوله: ﴿سُخْرِيًّا﴾[4].

دلالةُ الوَصلِ في صدر الجملة:

شأنُ الدُّنيا ليس معيارًا للتَّفاضل

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ بالواو الاستئنافيَّة؛ فالجملةُ مستأنفةٌ[5]، سيقَتْ للتَّذييل على مضمون الآية، والمرادُ مِن هذا التَّذييل الرَّدُّ عليهم بأنَّ ما جعلوهُ معيارًا للتَّفاضل - كالمال - هو أقلُّ شأنًا مِن رحمته تعالى، والمالُ إنَّما جَمَعَهُ صاحبُه لفائدة نفسه؛ فلا يكون مثلَ اصطفاءِ الله العبدَ للنُّبوَّة[6]، والواو هنا على خلاف الظّاهر؛ لأنَّ ما بعد الواو نتاجٌ لمجموعِ ما قبلها مِنَ الآية السّابقة؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ ولكنَّ

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 440.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 25/ 7.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 82.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.

الواوَ أشعرت باستقلال ما بعدها، لِما فيها من معنى المغايَرة؛ لأنَّه نصٌّ في حسم قضيَّةِ القوم التي عبَّروا عنها بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّحمة دون النُّبوَّة:

الرَّحمةُ مبعَثُ النُّبوَّة وثمرتُها

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ النُّبوَّة بالرَّحمة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مجازًا مرسلًا؛ لعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الرَّحمة سببٌ في إرسالِ الأنبياء والرُّسل، أو لعلاقةِ المسببيَّة؛ لأنَّ إرسالَهُم يترتَّبُ عليه رحمةُ العباد. "ورحمة الله: هي اصطفاؤهُ عبدَه للرِّسالة عنه إلى النّاس، وهي التي في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، والمعنى: (إذا كانوا غيرَ قاسمينَ أقلَّ أحوالِهم فكيف يقسمون ما هو خيرٌ مِن أهمِّ أمورهم)[1].

دلالةُ إضافةِ الرَّحمةِ إلى لفظِ الرَّبِّ:

الـرَّحـمـةُ من ثمراتِ الرُّبوبيَّة ومقتضياتِها

أضافَ النَّظمُ الجليل الرَّحمةَ إلى الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لشأنها، فهي منسوبةٌ إليه تعالى بِصفَة الإحسان إلى العباد[2]، وفيها تنبيهٌ على أنَّ مِثْلَ هذه الرَّحمة لا تكون إلّا مِنَ الرَّبِّ سبحانه؛ لعلوِّ بدوِّ إحسانهِ تعالى فيها؛ أفلا يُقبِلون عليها بدلًا مِن أن ينصرفوا عنها؟!.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

النُّبوَّةُ محضُ فَيضٍ مِن رحمة الرَّحمن

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الرَّبِّ دون الاسم الجليل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة هي مِن فيوضات الرُّبوبيَّة، والنُّبوَّةُ ما هي إلّا نفحةٌ مِن رحمته تعالى وإحسانه، فهي مِنَ المربِّي المدبِّرِ لأمور العباد؛ ومِن ذلك أمرُ النُّبوَّة وإرسالِ الرُّسل، وإنَّما صرَف القرآنُ القولَ عَن مظهر العظمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.

والسُّلطان كما في: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ إلى الوصفِ بالإحسان: ﴿رَبِّكَ﴾؛ إظهارًا لشرفِ النَّبيِّ ﷺ[1].

دلالةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَب:

أضافَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ (الرَّبّ) إلى ضمير المخاطب المرادِ به النَّبيُّ ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ إشارةً إلى سابق الإحسان، أي: (ورحمتُ المُربِّي لك، والمدبِّر لأمرك، بإرسالكَ، وإنارةِ الوجود برسالتك)[2].

دلالةُ التَّعبير باسم التَّفضيل:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم التَّفضيل الدّالِّ على الخيريَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وذلك لبيانِ الفرق الكبير بين رحمته تعالى التي هي هنا النُّبوَّةُ والسَّعادةُ في الدّارين[3]، وغيرها مِن كلِّ شيء؛ فهما في رُتبٍ مختلفة، فاقتضى التَّعبير عنِ الموازنة بينهما باسم التَّفضيل الذي هو نَصٌّ في الخيريَّة؛ لتأكيد سَعة الفرق بينهما؛ ووراء هذه اللَّفظة أنَّ مَن يُحاربُها أو يُنكرها ونحو ذلك فإنَّما يحرمُ نفسَه مِنَ الخير المتأكِّدِ الكثيرِ العظيم، ويُعرِّضُ نفسَه لشرٍّ عظيم.

أيــن حـظـوظُ الدُّنيا مِـن رُتبة النُّبوَّة

دلالةُ التَّعبير بالموصول وصلتِه فعلًا مضارعًا:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ لدلالته على التَّعميم؛ فرحمةُ اللّه تعالى هي خيرٌ مِن عُموم ما يجمعون، فكلُّ شيءٍ هو أدنى رتبةً مِن رحمة اللّه تعالى؛ للغموض الشَّديد الذي في هذا الموصول، وجاء التَّعبيرُ عن (الجمع) بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّده واستمراره، فرحمةُ اللّه تعالى هي أفضلُ من جمْعِهم مهما استدامَ وتجدَّد.

رحمةُ الله تعالى أفضلُ مِن كُلِّ شيء يجمعونه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 561.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.

دلالةُ حذفِ المفعول به:

خـيريَّـةُ رحـمـةِ الله على كُـلِّ ما يخطرُ بالبال

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فلم يقل: (ممّا يجمعونه) لدلالة السِّياق عليه، لأنَّ العائد معلومٌ؛ فاكتفى بمعرفته ذهنًا عن ذِكرِه لفظًا؛ طلبًا للإيجاز، وحفاظًا على نسَقِ الفاصلة، ولتقرير خيريَّة رحمةِ اللّٰه، وأفضليَّتها على كُلٍّ مجموع.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"